

تفسير ابن كثير

يقول تعالى آمرا عباده أن يوحدوه في محال عبادته ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به كما قال قتادة في قوله تعالى : { وأن المساجد } فلا تدعو مع الله أحدا { قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يوحدوه وحده وقال ابن أبي حاتم : ذكر علي بن الحسين حدثنا إسماعيل بن بنت السدي أخبرنا رجل سماه عن السدي عن أبي مالك أو أبي صالح عن ابن عباس في قوله : { وأن المساجد } فلا تدعو مع الله أحدا { قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك فأنزل الله تعالى : { وأن المساجد } فلا تدعو مع الله أحدا { يقول : صلوا لا تخالطوا الناس وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران حدثنا سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد عن محمود عن سعيد بن جبيرة { وأن المساجد } فلا تدعو مع الله أحدا { قال : قالت الجن لنبي الله صلى الله عليه وسلم كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون ؟ أي بعيدون عنك وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت { وأن المساجد } فلا تدعو مع الله أحدا . وقال سفيان عن خفيف عن عكرمة : نزلت في المساجد كلها وقال سعيد بن جبيرة : نزلت في أعضاء السجود أي هي فلا تسجدوا بها لغيره وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح من رواية عبد الله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس Bهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة - أشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين] وقوله تعالى : { وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا { قال العوفي عن ابن عباس يقول لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه { قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن } يستمعون القرآن هذا قول وهو مروي عن الزبير بن العوام Bه وقال ابن جرير : حدثني محمد بن معمر حدثنا أبو مسلم عن أبي عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : { لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا { قال : لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال : عجبوا من طواعية أصحابه له قال : فقالوا لقومهم { لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا { وهذا قول ثان وهو مروي عن سعيد بن جبيرة أيضا وقال الحسن : لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا .

وقال قتادة في قوله : { وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا } قال :
تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من
ناوأه وهذا قول ثالث وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقول ابن زيد وهو
اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده : { قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا } أي قال
لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا
على عداوته { إنما أدعو ربي } أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه
{ ولا أشرك به أحدا } وقوله تعالى : { قل إنني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا } أي إنما أنا بشر
مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم بل المرجع
في ذلك كله إلى الله ثم أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من الله أحد أي لو عصيته فإنه لا
يقدر أحد على إنقاذه من عذابه { ولن أجد من دونه ملتحدا } قال مجاهد وقتادة والسدي :
لا ملجأ وقال قتادة أيضا { قل إنني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا } أي لا
نصير ولا ملجأ وفي رواية : لا ولي ولا موئل .

وقوله تعالى : { إلا بلاغا من الله ورسالاته } قال بعضهم هو مستثنى من قوله : { قل إنني
لا أملك لكم ضرا ولا رشدا } { إلا بلاغا } ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : { لن يجيرني
من الله أحد } أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي كما قال
تعالى : { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله
يعصمك من الناس } وقوله تعالى : { ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا
{ أي أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبدا
أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها وقوله تعالى : { حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون
من أضعف ناصرا وأقل عددا } أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم
القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرا وأقل عددا هم أم المؤمنون الموحدون الله تعالى أي
بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عددا من جنود الله D